

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (٦)

الدرس السادس

فتوح الشام ومصر وليبيا

الشيخ/ ناصر بن محمد الأحمد

كان أول خطاب وصل إلى الشام من الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يحمل نبأ وفاة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وتولية أبي عبيدة على الشام.

تمثل الفتوحات في بلاد الشام في عهد عمر بن الخطاب المرحلة الثانية من الفتوحات في هذه الجبهة بعد الفتوح في عهد الصديق، فبعد أن انتهت معركة اليرموك وانهزمت جموع الروم استخلف أبو عبيدة بن الجراح على اليرموك بشير بن كعب الحميري، وأتاه الخبر أن المنهزمين من الروم اجتمعوا بفحل، وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص، فأصبح لا يدري أدمشق يبدأ أم بفحل في بلاد الأردن، فكتب القائد أبو عبيدة بن الجراح إلى الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يستأمره فأجابه: أما بعد، فابدؤوا بدمشق فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزله في دمشق من يمسك بها ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل فإن تم فتحها، فانصرف أنت وخالد إلى حمص وأمير كل بلد على جند حتى يخرجوا من إمارته.

أرسل أبو عبيدة بن الجراح وحدات قتالية إلى فحل، وانطلق أبو عبيدة نحو دمشق، ولم يلق أية مقاومة ذات أهمية تذكر، إذ أن الروم قد اعتمدوا على أهل البلاد في المنطقة قبل دمشق لإعاقة تقدم قوات المسلمين، إلا أن هؤلاء لم تكن لهم الحماسة والاستماتة للدفاع، ويعود ذلك لسوء معاملة الروم لهم وخاصة لأهل القرى الصغيرة، ووصلت قوات المسلمين إلى غوطة دمشق التي فيها قصور الروم ومنزلهم، وشاهدوها خالية لأن أهلها هجروها إلى دمشق، وأرسل هرقل قوة من حمص لإمداد دمشق، وكانت تقدر بخمسمائة مقاتل، وهي قوة قليلة مقارنة بما يتطلبه الموقف، إلا أن القوة الإسلامية التي وضعها أبو عبيدة بن الجراح شمال دمشق تصدت لها، وجرى قتال عنيف بين الجانبين انهزم فيه الروم، وناشد أهل دمشق هرقل الخلاص، فأرسل إليهم كتاباً يدعوهم إلى الثبات ويحرضهم على القتال والمقاومة ويعددهم بالمدد، فتقوت عزائمهم وجعلهم ذلك يصمدون للحصار وحركات القوات الإسلامية.

كانت دمشق مدينة عظيمة سميت باسم بانيتها "دمشق بن كنعان" وقد خضعت لحكم مصر، فهي أقدم المدن في التاريخ وكانت مركز عبادة الأوثان، ولما دخلت المسيحية جعلت من معبدها الوثني كنيسة لا يضاهاها بجمالها وجلالها إلا كنيسة إنطاكية، وفي جنوب دمشق تقع أراضي البلقاء وشمالها الجولان، وهي أرض جبلية وأراضيها كلها زروع وغدران مياه، وهي مركز تجاري مهم يسكنها العرب، وكان المسلمون يعرفونها لأنهم يتاجرون معها، وقد كانت مدينة دمشق محصنة تمتاز بالمناعة، فلها سور يحيطها مبنى من الحجارة وارتفاعه ستة أمتار، وفيه أبواب منيعة، وعرض المبنى ثلاثة أمتار، وقد زاد هرقل من مناعته بعد

الغزو الفارسي لها، والأبواب يحكم إغلاقها، ويحيط بالسور خندق عرضه ثلاثة أمتار، فأصبحت دمشق قلعة حصينة ليس من السهل اقتحامها.

تقول المصادر التاريخية أن مدة حصار مدينة دمشق استمرت ٧٠ ليلة، وكان الحصار شديداً، استخدمت فيه أسلحة الحصار الثقيلة، كالمجانيق والدبابات. وقد ظن الروم بأن المسلمين لا يستطيعون أن يصمدوا أمام طول الحصار وخاصة في أيام الشتاء، إلا أن المسلمين أصحاب العقيدة الراسخة والصبر الجميل، صمدوا أمام تغيرات الطقس، فقد عمل قادة المسلمين على إشغال الكنائس المتروكة بالغطوة والمنازل الخالية من أهلها ليرتاح فيها المجاهدون، على وفق أسلوب أسبوعي تتبادل قوات الجبهة التي على الأبواب مع قوات من الخلف، وبهذا التنظيم يستمر الحصار مهما طال الزمن. ولم يقف المسلمون عند هذا الحد، وإنما استمرت استطلاعاتهم الميدانية والهندسية لمنظومة الموانع المعادية، وتمكن خالد بن الوليد من انتخاب منطقة عبور ملائمة في هذه المنظومة، يمكن من خلالها اقتحام مدينة دمشق، فوقع الاختيار على أحسن مكان يحيط بدمشق وأكثره ماءً وأشده مدخلاً، كما جهز حبالاً كهيئة السلالم توضع على الجدران لتساعد على تسلق الأسوار، وقد علم خالد بن الوليد أن بطريق دمشق قد رزق بولد وجمع الناس في وليمة، فانشغل أفراد الروم بالأكل والشرب وأهملوا واجباتهم ومن ضمنها مراقبة الجبهة والأبواب، فلما أمسى ذلك اليوم نهض خالد بن الوليد هو ومن معه من جنده الذي قدم عليهم، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وقالوا: إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب، وعبر خالد وجماعته الأولى الخندق المائي على عائميتين من القرب ووصلوا السور، ورموا عليه الحبال التي هي بهيئة السلالم، فلما ثبت لهم الحبل تسلق فيها القعقاع ومذعور، ثم لم يدعوا حبالاً إلا أثبتاها، حتى إذا ارتفعوا نظمو السلالم لتستفيد منها الجماعة الثانية، ثم انحدرت الجماعة الأولى من السور ونزلوا قرب الباب، فكثر الأفراد الذين مع خالد، فكبر أولاً من أعلى السور، فتسلقت الجماعة الثانية السور وتقدموا نحو الباب، فاقتحموه بسيوفهم وهكذا دخلت على هذا النحو قوات المسلمين إلى مدينة دمشق.

قال واثلة: فأسمع صرير باب الجابية، وهو واحد من أبواب دمشق، فمكثت فإذا بخيل عظيمة فأمهلتها، ثم حملت عليهم وكبرت فظنوا أنهم أحيط بهم، فانهزموا إلى البلد، وأسلموا فأندهم فدعسته بالرمح وألقيته عن برذونه، وضربت يدي على عنان البرذون وركضت، والتفتوا فلماً رأوني وحدي تبعوني فدعست فارساً بالرمح فقتلته، ثم دنا آخر فقتلته، ثم جئت خالد بن الوليد فأخبرته، وإذا عنده عظيم من الروم يلتمس الأمان لأهل دمشق.

تحركت القوات الإسلامية بعد ذلك بمهاجمة مدينة فحل نحو الجنوب، وعندما وصلت مشارفها كانت قوة جيش الروم تقارب المائة ألف، تسلل أكثرهم من حمص وانضمت إليهم القرى التي هزمت في معارك سابقة، عندما وصلت القوة المكلفة بمحاصرة فحل من جيش المسلمين بقيادة عمار بن مخش جابهها جيش الروم بشق الترعرع من بحيرة طبرية وسلطوا مياهها على الأطيان المحيطة بفحل بقصد إعاقة جيش الإسلام وخاصة الفرسان، وبذلك أعاقوا حركة فرسان المسلمين، لقد جعل الرومان من هذه الأحوال خطأ دفاعياً منيعاً عن فحل رغم أنها تقع في سهل منبسط، ولو كان هذا السهل يابساً لتمكن المسلمون بسهولة من اقتحام المدينة

لأنهم أقدر الناس على مباشرة حرب الصحراء، وتوقف عمارة بن مخشن ووزع قواته لحصار فحل ولم يقتحمها وذلك للفارق العددي الكبير في القوة ولصعوبة التقدم وعدم التمكن من اجتياز هذا المانع المائي الذي عمله الرومان، واقتصر المسلمون على فرض الحصار على مدينة فحل التي يعتصم بها الروم إلى أن فرغ أبو عبيدة من فتح دمشق العاصمة وضم جيشه إلى جيش أبي الأعور السلمي وأعطيت القيادة العامة لشرحبيل بن حسنة، وذلك لأن موقع المعركة هو في حدود المنطقة التابعة له، واستلم القيادة شرحبيل بن حسنة ثم نظم إقامة القوات وإمدادها ووضع مخططاً لاستنفار القوات وبقاء القوة جاهزة باستمرار لمواجهة الطوارئ، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة، وطال حصار المسلمين لمدينة فحل، وظن الروم أن باستطاعتهم تحقيق المباغته والقيام بهجوم ليلي حاسم، فهجموا على المسلمين فنهضوا عليهم نهضة رجل واحد لأنهم كانوا على أهبة دائمة، ودارت معركة حتى الصباح وذلك اليوم بكامله إلى الليل، فلما أظلم الليل فر الروم وقتل أميرهم وركب المسلمون أكتافهم وأسلمتهم هزيمتهم إلى ذلك الوحل المانع الذي أعده للمسلمين، ونتيجة للإجراءات الأمنية والاستعداد الذي قام به شرحبيل على قواته، حدثت الفوضى في جيش الرومان المهاجم والتفرغ للهجوم المضاد الذي شنه المسلمون، فوقع الرومان لدى انهزامهم في المانع المائي الذي صنعه بأيديهم حول فحل فركب المسلمون أكتافهم ولم ينجو منهم إلا الشريد، ولقد تمت تصفية القوة المحاصرة في فحل وعندها توجه المسلمون نحو أهدافهم لمتابعة خطة العمليات الأساسية، فتم توجيه شرحبيل بن حسنة إلى الأردن وعمرو بن العاص إلى فلسطين، وانطلق أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد إلى حمص، وعند وصولهما إلى مرج الروم دارت معركة طاحنة حتى غطت جثث الموتى السهل، وفي هذه المعركة تمكن المسلمون من تطبيق مبدأ مهم من مبادئ الحرب والعمليات التعرضية حيث اصطدمت مقدمة الروم بمقدمة المسلمين فعندما شعر قائد الروم باصطدام مقدمة جيشه بجيش المسلمين قام بحركة استدارة، وانطلق في اتجاه دمشق، وعلم المسلمون بالأمر ودرسوا الموقف فقرر أبو عبيدة توجيه قوة بقيادة خالد بن الوليد لمطاردته والانقضاض عليه من الخلف، وأبو عبيدة يبقى في مواجهة ومشاغلة جيش الروم، في الوقت نفسه استطاعت استخبارات المسلمين من معرفة حركة واتجاه تقدم قائد الروم، فنقدم جيش يزيد بن أبي سفيان للقائه واشتباك معه، وما أن تم الاصطدام حتى باغت خالد بن الوليد الروم بضربهم من الخلف وتمت تصفيتهم تصفية كاملة تقريباً.

انصرف أبو عبيدة وخالد بمن معهما من الجيوش نحو حمص كما أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، واستخلف أبو عبيدة على الأردن شرحبيل بن حسنة، فسار شرحبيل ومعه عمرو بن العاص، فحاصر بيسان فخرجوا إليه فقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم صالحوه على مثل ما صالحت عليه دمشق، وضرب عليهم الجزية والخراج على أراضيهم، وكذلك فعل أبو الأعور السلمي بأهل طبرية سواء.

واصل أبو عبيدة تتبعه للروم المنهزمين إلى حمص ونزل حولها يحاصرها، ولحقه خالد بن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً، وذلك في زمن البرد الشديد، وصابر أهل البلد رجاء أن يصرف المسلمين عن المدينة شدة البرد، وصبر الصحابة صبراً عظيماً بحيث إنه ذكر غير واحد أن من الروم من كان يرجع، وقد سقطت رجله وهي في الخف، والصحابة ليس في أرجلهم شيء سوى النعال، ومع هذا لم يصب منهم قدم ولا إصبع،

ولم يزلوا كذلك حتى انسلخ فصل الشتاء فاشتد الحصار، وأشار بعض كبار أهل حمص عليهم بالمصالحة فأبوا عليه ذلك وقالوا: أنصالح والمَلِك منا قريب؟ ثم بعد ذلك صالحوهم على ما صالحوا عليه أهل دمشق، على نصف المنازل، وضربِ الخراج على الأراضى، وأخذ الجزية على الرقاب بحسب الغنى والفقير، وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى عمر مع عبد الله بن مسعود.

بعدها بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين، فلما جاءها ثار إليه أهلها ومن عندهم من نصارى العرب، فقاتلهم خالد فيها قتالاً شديداً وقتل منهم خلقاً كثيراً، فأما من هناك من الروم فأبادهم وقتل أميرهم "ميناس"، وأما الأعراب فإنهم اعتذروا إليه بأن هذا القتال لم يكن عن رأينا، فقبل منهم خالد وكف عنهم، ثم خلص إلى البلد فتحصنوا فيه، فقال لهم خالد: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه.

بعدها أمر عمر معاوية بن أبي سفيان على قيسارية وكتب إليه: أما بعد فقد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير. فسار إليها فحاصرها، وزاحفه أهلها مرات عديدة، وكان آخرها وقعة أن قاتلوا قتالاً عظيماً، وصمم عليهم معاوية، واجتهد في القتال حتى فتح الله عليه، فما انفصل الحال حتى قتل منهم نحو من ثمانين ألفاً، وكمل المائة الألف من الذين انهزموا عن المعركة، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه-.

وهكذا نرى أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا تجعلهم يفكرون في المقاومة فسقطت بيروت، وصيدا، ونابلس، واللد، وحلب، وإنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحاً على يد معاوية بن أبي سفيان وكان ذلك بعد فتح القدس.

كان على فلسطين قائد روماني يدعى "الأرطوبون" أي القائد الكبير الذي يلي الإمبراطور، وكان هذا أدهى الروم وأبعدهم غوراً وأنكاهم فعلاً، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً، وبإيلياء جنداً عظيماً، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر -رضي الله عنهما- يخبره بذلك ويستشيريه ويستأمره، فقال عمر كلمته الشهيرة: قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب، فانظروا عما تتفرج. وكان يقصد بذلك أن كلا القائدين أدهى الرجال في قومهما، وكانت معركة أجنادين الثانية سنة ١٥هـ، التي انتصر فيها عمرو بن العاص على الروم، وقد مهدت الطريق إلى فلسطين، وقد بدأت معركة القدس عملياً، قبل معركة أجنادين الثانية، ذلك أن أرطوبون الروم كان قد وزع جنداً عظيماً له في كل من إيلياء والرملة كما سبق أن قدمنا، وبين الرملة وإيلياء أي القدس ثمانية عشر ميلاً، وذلك تحسباً لأي هجوم من قبل المسلمين بقيادة عمرو بن العاص على المدينتين اللتين كانتا أهم مدن كورة فلسطين، إذ كانت الرملة قسبة فلسطين، وكانت إيلياء أكبر مدنها، وكان على الروم في إيلياء حاكمها الأرطوبون، وهو الأرطوبون نفسه الذي كان قد لجأ وقلول جيشه إليها بعد هزيمتهم في أجنادين، وكان عليهم في الرملة "التذارق".

كانت خطة الخليفة عمر أن يشغل الروم عن عمرو في فلسطين ريثما يتم الانتصار على حشودهم في أجنادين، حتى يتفرغ المسلمون بعدها لفتح القدس وما تبقى من بلاد الشام، فأمر معاوية أن يتوجه بخيله إلى

قيسارية ليشغل حاميتها عن عمرو، وأما عمرو فكان قد اعتمد الخطة نفسها التي اعتمدها الخليفة، فأرسل كلاً من علقمة بن حكيم، ومسروق المكيّ على رأس قوة لمشاغلة حامية الروم في إيلياء، فصاروا بإزاء أهل إيلياء، فشغلوهم عن عمرو، ثم أرسل أبا أيوب المالكي على رأس قوة أخرى لمشاغلة حاميتهم في الرملة، وما إن وصلت الإمدادات إلى عمرو حتى أرسل محمد بن عمرو مع مدد لقواته المرابطة في مواجهة حامية إيلياء، كما أرسل عمارة بن عمرو بن أمية الضمري مع مدد لقواته المرابطة في مواجهة حامية الرملة، أما هو فأقام في أجنادين بانتظار المعركة الحاسمة مع الأرطوبون، وفي هذه الأثناء كانت حامية إيلياء تصد المسلمين عن أسوارها، وكان القتال يستعر حول المدينة المقدسة، بينما كان المسلمون والروم يحتشدون للقتال في أجنادين، وكانت معركة أجنادين عنيفة، إذ يقول الطبري فيها: اقتتلوا، أي المسلمون والروم، قتالاً شديداً كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم، فقد نازل أرطوبون العرب أرطوبون الروم في أجنادين فهزمه، وارتدّ أرطوبون الروم وجنده ليحتموا بأسوار المدينة المقدسة فأفرج له المسلمون حتى دخلها. ويذكر الطبري أن كلاً من علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو وأبي أيوب التحقوا بعمرو في أجنادين، وسار عمرو بجيشه جميعاً نحو إيلياء لمحاصرتها.

اجتمع المسلمون بقيادة عمرو بن العاص حول إيلياء، وضرب عمرو على المدينة حصاراً شديداً، وكانت المدينة حصينة ومنيعة، ويصف الواقدي أسوار المدينة بأنها كانت محصنة بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخرة، ويذكر أن القتال بدأ بعد ثلاثة أيام من الحصار، حيث تقدم المسلمون نحو أسوار المدينة فأمطرتهم حاميتها بوابل من السهام والنبال التي كان المسلمون يتلقونها بدرقهم، وكان القتال يمتد من الصباح إلى غروب الشمس، واستمر على هذا المنوال عدة أيام، حتى كان اليوم الحادي عشر إذ أقبل أبو عبيدة على المسلمين ومعه خالد وعبد الرحمن بن أبي بكر، ومعهم فرسان المسلمين وأبطال الموحيين مما ألقى الجزع في قلوب أهل إيلياء، واستمر الحصار أربعة أشهر، ما من يوم إلا وجرى فيه قتال شديد، والمسلمون صابرون على البرد والتلج والمطر، إلى أن يئس الروم من مقاومة حصار المسلمين لمدينتهم، فقرر بطريقهم القيام بمحاولة أخيرة، وكتب إلى عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين رسالة يغريه فيها بفك الحصار نظراً لاستحالة احتلال المدينة.

كتب أرطوبون الروم إلى عمرو بن العاص يقول له: إنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع ولا تُغرِه فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة. فكتب إليه عمرو كتاباً يقول فيه إنه صاحب فتح هذه البلاد، وأرسل الكتاب مع رسول وأمره أن ينقل إليه رد الأرتوبون، فلما قرأ الأرتوبون كتاب عمرو ضحك مما جاء فيه وقال: إن صاحب فتح بيت المقدس هو رجل اسمه عمر، ونقل الرسول إلى عمرو ما سمعه من الأرتوبون، فعرف عمرو أن الرجل الذي يعنيه الأرتوبون هو الخليفة، فكتب إلى الخليفة يخبره بما جاء على لسان الأرتوبون أنه لا يفتح المدينة إلا هو، ويستتمده ويستشيريه قائلاً إني أعالج حرباً كؤوداً صدمواً وبلاداً أدخرت لك، فرأيتك. فخرج الخليفة بعد الاستشارة في مدد من الجند إلى الشام، بعد أن استخلف على المدينة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ونزل بالجابية، فجاءه أهل إيلياء فصالحوه على الجزية وفتحوها له.

وبعد فتح فلسطين توجه المسلمون إلى مصر، ثم أن القبط أنفسهم يعانون من اضطهاد الروم، وهؤلاء لا يعيشون في مصر إلا بمثابة حاميات عسكرية، فلماذا لا تنتهز هذه الفرصة؟ كل هذا كان يدركه عمرو بن العاص وخلص إلى نتيجة وهي: أن الروم في مصر سيكونون عاجزين عن الوقوف في وجه المسلمين، بينما لو تركت مصر دون فتح فستظل مصدر تهديد لهم.

جاءت الروايات التاريخية أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعد فتح الشام أن أندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فبعدما أقام عمر بإبلياء صالح أهلها ودخلها أياماً، فأمضى عمرو بن العاص إلى مصر، وأمره عليها، إن فتح الله عليه، وبعث في إثره الزبير بن العوام مدداً له.

يعتبر فتح مصر المرحلة الثالثة من الفتوحات بالنسبة لمحور الدولة البيزنطية ولقد كانت مسيرة عمرو من فلسطين إلى مصر محاذياً البحر فسار من رفح إلى العريش إلى الفرما واستمر فتحه للقاهرة فالإسكندرية.

تقدم عمرو غرباً ولم يلاق جيشاً رومانياً إلا في الفرما، أما قبل ذلك فقد قابله المصريون بالترحاب والتهليل، فكان أول موضع قوتل فيه كان في الفرما، فقد تحصن الروم في المدينة لمواجهة المسلمين، واثقين من قدراتهم على الذود عنها ورد المسلمين بعد أن علموا أن المسلمين الذين جاءوا مع عمرو قلة في العدد والعدة وليس معهم عدة للحصار، عرف عمرو عدد الروم واستعداداتهم وأنهم يزيدون على جنده أضعافاً، فكانت خطته في الاستيلاء على الفرما هي المهاجمة وفتح الأبواب أو الصبر عليها إلى أن يضطر الجوع أهلها فينزلوا إليها، واشتد حصار المسلمين للمدينة واشتد عناد الروم ودام الحصار شهوراً، وكانت بعض القوات الرومانية تنزل إلى المسلمين بين الحين والآخر لقتالهم فيُجهز عليهم المسلمون. وذات يوم خرجت فرقة من الرومان من القرية إلى المسلمين ليقاتلوهم وكانت الغلبة للمسلمين والدائرة على الروم فلادوا بالفرار إلى القرية وتبعهم المسلمون وكانوا أسرع منهم، فملكوا الباب قبل أن يقتحمه الرومان، فكان الفتح المبين، ومما هو جدير بالذكر أن أقباط مصر الذين كانوا بالقرى عاونوا المسلمين ودلوهم على مناطق الضعف وتلقوا المسلمين بالترحاب، وبعد تمام احتلال الفرما قام المسلمون بهدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد منها الروم لو رجعوا إليها.

اطمأن عمرو إلى أن المدينة لم تعد صالحة لحماية جيش يأوي إليها، وتفقد جيشه وما فقده في المعركة وتآلم لفقد رجال كانوا حريصين على فتح مصر فعاجلتهم المنية، وخشي إن استمرت المعارك على هذا النحو مع وقوع الخسائر في الجيش القليل العدد أن لا يستطيع مواصلة الزحف، ولا يتمكن من بلوغ الغاية، ولكن الله تعالى قد عوضه عن فقده فانضم إلى جيشه كثير من رجال القبائل العربية من راشدة ولخم وكانوا يقيمون بجبل الحلال، ومضى عمرو بجيشه لا يلقى شيئاً من المقاومة متجهاً غرباً حتى وصل القواصر، ومن هناك اتجه نحو الجنوب حتى أصبح في وادي الطمبلان بالقرب من التل الكبير ثم اتجه إلى الجنوب حتى نزل بلبيس. وعند بلبيس برز الروم في قوة كبيرة قاصدين صدّ عمرو عن التوجه نحو حصن بابليون وأرادوا منازل المسلمين.

خرج الروم مع الأقباط لمواجهة المسلمين، وجرت بينهم معركة حامية استعمل فيها عمرو بن العاص دهاءه الحربي كما صنع خالد بن الوليد في حروب العراق، وذلك أنه جعل جيشه ثلاثة أقسام، حيث أقام كميناً للأعداء في الجبل الأحمر، وأقام كميناً آخر على النيل، وقابل أعداءه ببقية الجيش، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي في الجبل الأحمر وانقضَّ على الروم فاختل نظامهم وانهزموا إلى النيل، فقابلهم الكمين الذي بقربها فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة، وانهزموا وتفرق جيشهم ولجأ بعضهم إلى حصن بابلين الحصين، وهكذا كسب المسلمون هذه المعركة ووقاهم الله شر أعدائهم بفضلته تعالى وذلك بتوفيق قائدهم المحنك إلى هذه الخطة المحكمة التي شنت بها قوات الأعداء.

تقدم عمرو وجيشه إلى حصن بابلين وحاصروه حصاراً محكماً ودام الحصار سبعة أشهر، وأرسل المقوقس خلال ذلك رسله إلى عمرو بن العاص للمصالحة فاستجاب عمرو بن العاص على الشروط: الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختر المقوقس الجزية، وكتب المقوقس إلى هرقل يستأذنه في ذلك فلم يقبل منه بل حنق عليه ولامه لوماً شديداً واستدعاه إلى القسطنطينية ثم نفاه، ولما أبطأ فتح حصن بابلين قال الزبير بن العوام: إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، وراح عمرو بن العاص يحاصر حصن بابلين ثم تسوروا الحصن في الليل واشتبكوا مع الجنود في قتال عنيف، وكان أول من تسور الحصن الزبير بن العوام، فوضع سلماً ثم صعد وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يقتحموا الحصن، فما شعروا إلا والزبير بن العوام على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فكبر تكبيرة فأجابه المسلمون من خارج الحصن، ولم يشك أهل الحصن أن المسلمين قد اقتحموا جميعاً الحصن فهربوا، فعمد حواري رسول الله بأصحابه إلى باب حصن بابلين ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن وفتحوه عنوة، ولكن عمرو بن العاص أمضى الصلح على أن يُخرج جند الروم ما يلزمهم من القوات لبضعة أيام، أما حصن بابلين وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فتبقى غنيمة للمسلمين.

رابط عمرو بن العاص ورجاله عدة أشهر في حصن بابلين ليستجماً الجنود ويصله الإذن من أمير المؤمنين عمر بالسير لفتح الإسكندرية، فلما تحقق ذلك ترك عمرو في الحصن مسلحة قوية من المسلمين، وفصل بجنوده من بابلين في جمادى الآخرة سنة ٢١هـ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط الذين اطمأنوا إلى أن مصلحتهم باتت في مساندة القوة الإسلامية المظفرة، وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم، وقد آثر عمرو السير على الضفة اليسرى للنيل حيث محافظة البحيرة لتتيح له الصحراء مجالاً واسعاً لحركة خيله وجنوده، وكى يتجنب ما كان سيعترضه من الترع الكثيرة لو سار في دلتا النيل، ولم يلق عمرو إلا قتالاً يسيراً عند الطرانة، ثم عبر النهر إلى الضفة الشرقية حيث تقع مدينة نقيوس الحصينة، وكانت ذات حصن منيع فتخوف عمرو أن يتركها على جانبه ويسير عنها، ولكن الروم بدل أن يتحصنوا من المسلمين في حصنهم ركبوا سفنهم ليحاربوا المسلمين فيها ويمنعوهم من الاقتراب من مدينتهم، فرماهم المسلمون بالنبال والسهام وطاردهم في المياه، فولوا الأدبار في سفنهم نحو الإسكندرية، وسرعان ما استسلم من بقي في الحصن ودخله المسلمون ظافرين، وأمضوا عدة أيام يستبرئون ما حوله من أعدائهم، وأرسل عمرو قائده شريك ليتعقب الروم الفارين، فالتقى

بهم وليس معه إلا قوة معدودة، فطمع فيه الروم وأحاطوا به، فاعتصم بهم في نهد من الأرض عُرف فيما بعد بكم شريك، فأرسل إلى عمرو يطلب الأمداد، وما إن علم الروم أن المدد في الطريق إلى المسلمين حتى لاذوا بالفرار، وعند سُلطَيْس على ستة أميال جنوبي دمنهور كان اللقاء التالي بين عمرو والروم، وجرى قتال شديد انهزموا فيه وولوا الأدبار، ومما يؤسف له أن هذه المعارك التي خاضها المسلمون بقواتهم المحدودة ضد قوات تفوقهم عدة أضعاف من الروم عدداً وعدة، والتي استمر بعضها عدة أيام لم تظفر من مؤرخي المسلمين سوى بأسطر قليلة أو كلمات معدودة، في حين أفرد بعضهم عشرات الصفحات للحديث عن القادسية أو اليرموك أو نهاوند، وقد كانت الإسكندرية عند فتح المسلمين لها عاصمة البلاد وثانية حواضر الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وأول مدينة تجارية في العالم، وكان البيزنطيون يدركون خطورة استيلاء المسلمين عليها ويحملون هم ذلك، حتى قال هرقل: لئن ظهر العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم. وكانت الإسكندرية فضلاً عن متانة أسوارها وضخامة ووفرة حماها تمتاز بموقعها الدفاعي المميز فكان البحر يحميها من شمالها، حيث السيطرة آنذاك للروم، وكانت بحيرة مريوط تحميها من جنوبها، وكان اجتيازها عسيراً بل غير مستطاع، وكانت إحدى تقريعات النيل قديماً واسمها نزعة الثعبان تدور حولها من الغرب، وبذلك لم يبق إلا طريق واحد من الشرق يصل إليها.

طال الحصار عدة أشهر مما أثار مخاوف عمرو من ملل جنوده أو شعورهم بالعجز أمام عدوهم، فقرر أن يبث كتائبه تجوس خلال بلاد الدلتا وقرى الصعيد، غير أن طول حصار الإسكندرية أثار حفيظة الخليفة عمر، وأثار في نفسه الهواجس والظنون حول استعداد جنوده للتضحية والمبادأة، ورأى أن ذلك ما كان إلا لما أحدثوا، وشرح ذلك في رسالة إلى عمرو بن العاص، فلما أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله ويسألوه النصر، ففعلوا ففتح الله عليهم.

استبقى عمرو أهل الإسكندرية فلم يقتل ولم يسب وجعلهم أهل ذمة، كأهل بابلين، ثم ترك في الإسكندرية حامية من قواته بعد أن اطمأن إليها ونشر بقية كتائبه لتفتح بقية حصون الروم وجيوبهم في مصر، فاستكمل فتح ساحل البحر المتوسط ومدنه الكبرى مثل رشيد ودمياط وغيرها، وكذلك بسط سيطرته على كل دلتا مصر وصعيدها.

سار عمرو بن العاص -رضي الله عنه- بعد أن استقر له فتح مصر ليؤمن فتوحه من ناحية الغرب، إذ كانت للروم قوات في برقة وطرابلس تتحصن هناك، وربما وانتهت الفرصة ساقها الإغراء إلى مهاجمة المسلمين بمصر، فاتجه في قواته إلى برقة سنة ٢٢هـ، وكان الطريق بينها وبين الإسكندرية آنذاك منزعاً بالخضرة والعمران، فلم يلق كيداً في طريقه إليها، فلما وصلها صالحه أهلها على أداء الجزية، وكان أهل برقة بعد فتحها يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة، ثم سار عمرو إثر ذلك إلى طرابلس ذات الحصون المنيعة، وبها جيش رومي كبير، فأغلقت أبوابها وصبرت على الحصار الذي استمر شهراً لا يقدر المسلمون منها على شيء، وكان البحر من ورائها لاصقاً ببيوت المدينة، ولم يكن بين المدينة والبحر سور، فاستبانت جماعة من قوات المسلمين الأمر، فتسللت إلى المدينة من جهة البحر وكبروا، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، إذ هاجمهم عمرو في قواته أيضاً فلم

يفلت منهم إلا ما خفت بهم مراكبهم، وغنم المسلمون ما بالمدينة، وبث عمرو قواته فيما حولها، وأراد عمرو أن يستكمل فتوحه في الغرب ويسير إلى تونس وأراضي إفريقية ليفتحها، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، غير أن الخليفة كان يخشى على جيوش المسلمين من الانسحاق في جبهة جديدة ولم يطمئن بعد إلى ما فتحت في زحفها السريع من الشام إلى طرابلس، فأمر القوات الإسلامية بالتوقف عند طرابلس، وبذلك امتدت دولة الإسلام في عصر عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لتشمل مساحة شاسعة من الأرض، يدها من الشرق نهر جيحون والسند، ومن الغرب بلاد إفريقية و صحراؤها، ومن الشمال جبال آسيا الصغرى وأراضي أرمينية، ومن الجنوب المحيط الهادي وبلاد النوبة، في دولة عالمية واحدة متعددة الأجناس والديانات والنحل والعادات، عاش أهلها في عدل الإسلام ورحمته، ذلك الدين الذي احتفظ لهم بحقهم في الحياة الكريمة وإن اختلفوا معه في عقائدهم، ومع أهله في عاداتهم وأعرافهم.

والحمد لله أولاً وآخراً ..